قبل أن يصيح الديك

(تتمة القصة)

ثم رفع محمود عقيرتهُ وصرخ بأعلى صوتهِ . وبعد هنيهة اقبل روبرت نحوهما يظلع متعثراً وهو يقود فرسهُ المرهَق وحشو اجفانهِ واذنيهِ وانفهِ رمل كثيف سدَّ عليهِ منافذ البصر والسمع والتنفُّس وكاد يقضي عليهِ خنقاً . فبادر محمود اليهِ واخذ يدعمهُ ومال دون سقوطهِ من شدة الإعياء وقال : —

« على مقربة منا قرية عرب سكانها من اصدقائي . فلعلك تفضّل المبيت فيها عند شيخ القرية »

— « لا استطيع الانتقال خطوة واحدة لان التعب آخذ مني كلَّ مأخذ — والموت اقرب اليَّ من حبل الوريد ان لم يُتَح لي الآن ان اضطجع واستريح »

فحاطهُ محمود بذراعهِ وهبط بهِ كهفاً فيهِ جامع صغير محجوب عن عيون الذين هم خارج الكهف . وهذا الجامع كان قديماً ، حسب رواية محمود ، مأوى واحد من اولياء الله . وفيما هم داخلون قال محمود لرفيقهِ

« هنا تحت الارض حجرة يفزع اليها طالب النجاة فيأمن الخطر . ولكن الاهتداء اليها سرٌّ قلَّ من يعرفهُ غيري » ثم ضغط عرقاً في الحائط واذا بحجر كبير مستدير انفتح على مهل عن فرجة تكفي لدخول الانسان بسهولة . واستأنف محمود كلامهُ قائلا : —

« نترك الجوادين هنا — فلا خوف من مغادرتهما هذا الملجأ لانهُ على ضيقهِ خيرٌ لهما من التعرض لمكاره الإعصار — واذا كنتما لا توجسان خوف صحبتي والمبيت في ضيافتي فسأبذل جهدي في توفير اسباب راحتكما »

وظلَّ ديفد وروبرت سنين طويلة يذكران تلك الساعات التي قضياها في حجرة الوليّ . فانَّ محموداً أعدَّ لروبرت الخائر المنهوك فراشاً ليّناً من جلود الضأن أضجعهُ عليهِ وأطعمهُ ما تسنى عندهُ فأكل وتملى نوماً عميقاً مريحاً . وجلس محمود وديفد يدخنان ويتسامران

لم يحاول محمود إنكار ما اتُّهم بهِ بل اعترف لضيفهِ بقتلهِ للعاشقين . وفي اثناء

اعترافه بما جنته يداه تمتمت عيناه على الإلم المبرح العابث بنفسه من شدة حزنه على المرأة التي احبها من صميم فؤاده

وأخبره ديفد بالوسائط المتخذة لاتقاء الرمي والقبض عليه . ولكنه ظل ، حتى بعد ما علم بعزم اخوي القتيلة على الاخذ بثأرها ، واثقاً بنجاته وسلامة حياته . فقال لديفد : —

لا بدّ ان الحظ يسعدني فانجو من كل خطر يتهددني . لا لاني اطمع بلذة الحياة بعد ما سئمتها بفقد من كانت موضوع حياتي وقبلتي في صلاتي بل لانه يعزّ عليّ ان أُقاد الى الموت اذلّ من فقع بقرقر[1] . ولن يحول دون نجاتي سوى الغدر . وهذا انا في مأمن منه . فسأبقى هنا الى الصباح . وكان حصاني قد أُصيب بالمرج ولولا ذلك لكنتُ الآن في اطراف السودان . ولكنه قد شفي مما اصابه . وغداً ينتهي الإعصار فيصفو محيّا الجو ويسهل السفر على من اراده »

— « أصحيح هذا ؟ »

— نعم . فالليلة آخر عهدنا بهذه الزوبعة . وغداً صباحاً اذهب لطيّتي . وانتما تعودان الى القاهرة »

« حقق الله الآمال فقد ذقنا من الإعصار الامرّين وضللنا الطريق . ولكنك قادر ان تردّنا الى سواء السبيل »

— « سأفعل ذلك بملء الرضى والمسرّة . والآن خيرٌ لك ان تلتمس الراحة من عناء يومك برقاد تنعم به ولو بضع ساعات

وفي تلك الليلة قضى الإعصار انفاسه كما توقع محمود وبزغ فجر اليوم التالي مبتسراً يوم صحو وصفاء لا مزيد عليهما . فاستيقظ محمود باكراً جداً واعدّ القهوة لضيفيه . وقبلما برزت الغزالة من خدرها كان اولئك الثلاثة متأهبين للانطلاق . فوقف محمود امامهما ودلّهما على طريق القوافل وكانا قد ضلاّه في اثناء الزوبعة . فقال له ديفد :

« نستودعك الله ونشكر لك معروفك العظيم . ولولاك لم يسهل علينا روبرت النجاة من مخالب الموت فأذهب في كلاءة الله وحفظه . وكن واثقاً كلّ الثقة باننا بعد مفارقتنا لك سنسعى اينما لقيناك »

---

(١) مثل يضرب في الذل

« اشكر لكما هذا الشعور العميق الصادق . ولست بموجس أقل خوف ما دامت سلامتي متوقفة على اخلاصكما وصحة ولائكما . والآن حانت ساعة . . . » ولم يتمكن من تتمة كلامه لان روبرت صاح بصوت عالٍ قائلاً : —

« لله ما اشدّ طيشي وحماقتي ! لقد نسيت محفظة نقودي في حجرتك . سأعدو راجماً لآخذها واعود باسرع من لمح البصر » فاعترضهُ محمود باسماً وقال : —

« لا . ليس في إمكانك الدخول الى الحجرة . امسك حصاني ريثما اذهب واعود في طرفة عين

٤

انطلق محمود يعدو الى الحجرة ووقف ديفد وروبرت ينتظران رجوعهُ واجمين ساكتين . وما لبثا ان سمعا ضجيجاً عالياً ووقع حوافر خيل واصوات هتاف تصيح مردّدة الفاظ الوعيد والتهديد والحثّ على الثأر والانتقام . فعراهما ذعر ارتعشت لهُ اعضاؤهما . والتفتا الى جهة الصخب والجلبة فأبصرا كوكبة فرسان مقبلين نحوهم وقد اطلقوا الاعنّة واشرعوا الاسنّة . وما أبطأوا ان اطبقوا عليهما وكانوا ستّة منهم اثنان كانا اخوَي ياسمين القتيل . وكان كلٌّ من ديفد وروبرت يعرف اللغة العربية فعلما من حديث هؤلاء الفرسان انهم يجوبون اطراف البادية مفتشين عن القاتل . فأحدقوا بهما ولجوا عليهما في ان يدلاّهم على مخبإ محمود . ولم يصدّقوهما عندما صرّحا بانهما لا يعلمان عنهُ شيئاً وانهما قدما من القاهرة للتنزه بالطواف في الصحراء . وفي بداءة الحديث كلّمهما رئيس هذه العصابة برقة ولين فضلّل ديفد نفسهُ بأنهم صدّقوا ما قالاهُ لهم وعما قليل يطلقونهما . ولكنّ واحداً من الفرسان — وكان سابقاً في خدمة الصائغ لا لا — عرف الجواد الثالث واخبر رفقاءه بانهُ لمحمود بك فبات الرجلان الانكليزيان في ورطة يصعب عليهما الخلاص منها . على انهما تذرعا بالحزم والثبات واصرّا على إنكار كل علاقة بالقاتل . وقال ديفد : —

« قد يكون هذا الحصان للرجل الذي تقتفون اثرهُ . واذا صحّ ذلك فليس بعيداً ان يكون فارسهُ ملقىً ميتاً في القفر . ونحن قد عثرنا على الفرس ليلة امس في اثناء الإعصار وكان عارياً بلا فارس . فأخذتنا الشفقة عليهِ وابقيناه معنا » فردّ عليهِ رئيس العصابة قائلاً : —

« ليس الامر كما ذكرت بل حيث يكون الفرس يكون الفارس . انكما رجلان انكليزيان لا شأن لنا بكما . ولكن اذا اصررتما على الانكار وأبيتما ان تدلانا على القاتل الذي تعلمان مقرّهُ فاننا نحتزُّ رأسيكما وندفنكما في الرمل » فاجابهُ ديفد بحزم وثبات جأش : —

« لا تجسران على مسّ شعرة منا لاننا انكليزيان . وهبكم قتلتمونا فلستم بمجدين الفتيلة الى الحياة » . فصاح به الرئيس صيحة الغيظ والحنق وقد قدحت عيناهُ شرر السخط والغضب : —

« صه ايها الكلب ! والا عجلت في إخماد انفاسكما وموارانكما حيث ينمذّر العثور على آثاركما »

فهمس روبرت في اذن ديفد قائلاً :—

« هذا صحيح ! فان فتكهُ بنا من اسهل الامور عليهِ . ونحن لا فائدة لنا في هذا ولا جدل . فلماذا نتعرّض للخطر بلا اقل مسوّغ ؟ » فأجابهُ ديفد والغيظ آخذ منهُ كل مأخذ : —

« ايجدّ تقول هذا يا روبرت ؟ وهل مرادك ان تبوح بما نعلم طمعاً في انقاذ جسدك الحقير الدميم ؟ ومن الحمق عندي انهم لا يجسرون ان يمسونا باذى . لا تبأ بوعيدهم وتهديدهم . فما قليل ترى انهُ برق خلّب وغيث جهام » ولكنّ واحداً من الفرسان ملّ سماع حديث بلغة يجهلها فانهال عليهما بالشتم والسبّ . وعاد الرئيس الى سابق الانذار والتهديد ناصحاً لهما ان يخبراهُ اين يختبيء محمود بك وهو يعدهما بأنهُ يطلق سراحهما ويقيهما من كل خطر وضرر . ولم يرتب ديفد في وفائهِ بوعده ولكنهُ أبى ان يغدر بمحمود الذي آواهما وانقذ حياة روبرت من خطر الموت واصرَّ على قرارهِ الاول لم يحد عنهُ قيد شعرة

وفيما كان واحدٌ من الرجال يجول حول البقعة التي كانوا واقفين فيها عثر على الجامع الصغير وحثَّ مسرعاً الى رفقائهِ يبشّرهم باكتشافهِ . ولكنّ تفتيشهم للجامع لم يجدهم نفعاً لان محموداً كان عند ما نزل ليفتش عن محفظة النقود قد احتاط لنفسهِ واغلق الحجر خلفهُ

وهذه الخيبة الاخيرة اضرمت نار السخط والاستياء في قلب رئيس العصابة . فالتفت الى ديفد وقال لهُ وشرر الحنق يتطاير من عينيهِ : —

« إن لم توضحا لنا وجود جواد محمود بك معكما على وجهٍ مقنع يبرهن صحة دعواكما بعدم معرفة مقرّه فاننا سنتخذ وسائل عنيفة تضطركما الى الاعتراف مكرهين »

ثم تكلف الرفق والمهادنة وقال مخاطباً ديفد : —

« يظهر لي ان رفيقك على غير شاكلتك . واظنهُ يسهل حملهُ على ان يقول الحقّ اذا فوضتُ استنطاقهُ الى سليم » (وهو سوداني ضخم الجثة شرس الاخلاق) فلما سمع روبرت هذا الكلام وعلم انهُ هو المعنيُّ بهِ صرخ هائماً مذعوراً وقال : —

« ويلاهُ ! يقتلوني ! أغثني يا ديفد اغثني . ليس في طاقتي احتمال هذا الامر ؟ ولا انا ممن يروم ان يسعى الى حتفهِ بظلفهِ . فحياتي وحياتك معرّضتان لخطر الموت فداء حياتهِ . يجب ان ننقذ حياتنا ولو آل الامر الى إفشاء سرّ محمود ؟ »

وحين سمع الرئيس اسم محمود لم يبق عندهُ اقلُّ ريب في صحة ما اتّهم هذين الرجلين بهِ . ومن فورهِ أهاب بسليم فانقض على روبرت وشدّ وثاقهُ وانبرى لهُ رجلٌ آخر شاهراً خنجراً كبيراً ليطعنهُ بهِ

فحمل ديفد على حامل الخنجر . ولكنّ اثنين من الرجال الباقين هجما عليهِ وطوّقاهُ بأيديهما وحالا دون تمكنهِ من ابداء اقلّ حركة مع كل ما اظهرهُ من البسالة وشدة البأس في محاولة الإفلات منهما . ومع وقوعهِ في قبضتهما لم يصدّق انهم يتصدون لقتلهِ او برفيقهِ وعدّ عملهم هذا إسرافاً في التهديد والإرهاب ليرغموهما على الاعتراف بما يعلمانهِ عن محمود . ولكن لما شعر روبرت بوخز الخنجر في ذراعهِ انتفض متلوّياً من شدة الألم وصرخ صرخة الجزع والقنوط وما عتم ان باح بسرّ مخبإ محمود في قبر الوليّ

ولم يكن ثمّ من حاجة الى البحث والتفتيش لان صراخ روبرت رجّ طبقات الهواء وتجاوبت اصداؤهُ من جميع الجهات وعلى أثرهِ اقبل محمود صاعداً من مخبإهِ وهو يطلق النار من مسدّسهِ دفاعاً عن الرجلين اللذين عدّهما من اصدقائهِ

وكان الفصل الاخير من هذه الفاجعة قصيراً جدًّا . فبعد هنيهة كان جثمان محمود بك ملقى على الرمال وقد غادرهُ رصاص أعدائهِ كخريطة الغربال . وغشيت الافق من ناحية الجنوب سحابة قتم[1] كثيفة دلّت على ركون العصابة الى الفرار بعد ما نالت مبتغاها

(١) غبار حوافر الخيل

وكان روبرت قد شعر ولو موقتاً بسقوط شأنه الادبيّ حتى في عيني نفسه . فخرّ على وجهه وأمعن في النشيج والشهيق . أما ديفد فجثا بجانب جثة ذلك الذي اخلص لها الود ووثق بوفائها واماتها وقال بصوت تقطعه زفرات الندم والاسف : —

« ايها الصديق الوفيّ الامين ! . وضعتَ ثقتك بنا . ولكنك في الساعة الاخيرة من حياتك ظننتَ أننا كنا اسلمناك وغدرنا بك » . ثم رفع صوته قليلاً وقال : —

« والله وحده يعلم اني افضّل ان اموت اشنع ميتة على ان ارتكب هذا الاثم العظيم . ولكنك فارقتَ الحياة وانت جاهل لهذه الحقيقة »

ثم نهض من بجانبه وذهب الى حيث كان رفيقه . فرمقه بنظرة شفت عما كان في قلبه من شدة الاحتقار له وفرط الاسف على محمود بك وقال له : —

« قم يا روبرت . فقد ذهبوا وزال عنا الخطر »

فقال روبرت وهو يحاول التسلل والدفاع عن نفسه : —

لعلك تجهل يا ديفد لماذا ابيت ان اموت ! فقد حرصتُ على حياتي لاني رمتُ العودة الى القاهرة لاشاهد ايثا لورين . فانا مشغوف بها حبًّا . وسأعرض عليها الاقتران بي . فان اجابت سؤلي . . . . . »

فاعترض ديفد تتمة كلامه بقوله له : —

« لن تجيب سؤلك لاني خطبتها منذ ثلثة اسابيع »

« ومع ذلك وطّنتَ نفسك على الموت بايدي أولئك الاجلاف الاوغاد ؟ »

« نعم . لاني لم اشأ ان اعود اليها موصوماً بعار الغدر والخيانة ! ولعلك تذكر قولك لي منذ وقت قصير انك لن تُقدم على خيانة صديقك حتى في سبيل انقاذ حياتك »

ثم تحوّل عنه وعاد الى حيث كانت جثة محمود بك فوقف مطرقاً حاسر الرأس خاشع الطرف ينظر الى شهيد المروءة والوفاء وفؤاده صالٍ لظى الكآبة . وحينئذٍ صاح ديك من قرية العرب التي بين كثبان الرمال

ترجمة : اسعد خليل داغر